

مدخل إلى علم التاريخ

الاسم بالعربية

Course Name

استاذ المقرر

د/ عبدالحليم رمضان



جامعة الملك فيصل

عمادة التعلم الإلكتروني والتعليم عن بعد

كلية الآداب

المحاضرة الحادية عشر



٦ - الاجتماع والتاريخ :

وأقدم من أخذ بالتعليل الاجتماعي ابن خلدون في القرن الثامن للهجرة (الرابع عشر الميلادي) ولقد كانت نظرة ابن خلدون للتاريخ راقية للغاية . يقول ابن خلدون :

« أما بعد ، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال ، وتشد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفة السوق والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقيال ، ويتساوى في فهمه العلماء والجهال ، إذ هو في ظاهرة لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ،

وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال ، وتؤدى إلينا شأن الحقيقة كيف تقلبت بها الأحوال ، واتسع للدول فيها النطاق والمجال ، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال ، وحن منهم الزوال ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق ، وجدير بأن يعد في علومها وخلقها ، وأن فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها ، وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها ، وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها ، وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها ، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها ، وأدوها إلينا كما سمعوها ، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ، ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها ، فالتحقيق قليل ، وطرف التنقيح في الغالب كليل ، والغلط والهمل تسبب للأخبار وخليل ، والتقليد عريق في الآدميين وسليل ، والتطفل على الفنون عريض وطويل ، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل . والحق لا يقاوم سلطانه ، والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه ، والناقل إنما هو يملى وينقل ، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمقل ، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل .

هذا وقد دون الناس في الأخبار وأكثروا ، وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطروا . والذين ذهبوا بفضل الشهرة والأمانة المعتبرة ، وأفرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة ، هم قليلون لا يكادون يجاوزون عدد الأنامل ، ولا حركات العوامل ، مثل ابن اسحق والطبري وابن الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف ابن عمر الأسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير ، المتميزين عن الجماهير ، وإن كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الاثبات ، ومشهور بين الحفظة الثقات ، إلا أن الكافة اختصتهم بقبول أخبارهم ، واقتفاء سنتهم في التصنيف واتباع آثارهم ، والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم ، فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار ، وتحمل عليها الروايات والآثار . ثم إن أكثر التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك ، لعموم الدولتين صدر الاسلام في الآفاق والممالك ، وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والمشارك . ومن هؤلاء من استوعب ما قبل الملة من الدول والأمم ، والأمر العمم ، كالمسعودي ومن نحا منحاة .

والتعليل التاريخي عند ابن خلدون يرتكز على حقيقة أساسية فيما يرى ابن خلدون وهو أن أحداث التاريخ نفسها هي التي يفسر بعضها بعضا ، فليس ثمة قوة خارجية تلوى رقبة التاريخ ، فطراز المعيشة وأبعاد النشاط الانساني تؤثر في مجرى الأحداث . ويرى ابن خلدون أن العصبية لها دور كبير في تسيير حركة التاريخ ، فقد تكون هذه العصبية ، عصبية صلة عرقية ، وقد تكون عصبية اتحاد جماعة في المصلحة . . ويرى ابن خلدون أن المجتمع كائن حي يبدأ طفلا (مرحلة البداوة) ثم يتطور ويكتمل (مرحلة

العمران) . والظفر في المنازعات دوما فيما يرى ابن خلدون يكون لأهل البداوة . ومن الواضح أن هذه النظرية لا تنطبق في كثير من تفاصيلها على التاريخ الحديث ، حيث أصبح للعلم والتقدم التكنولوجي تأثير كبير في حسم المنازعات ، مما يجعل أهل البادية ينتصرون على من سواهم بقدر ما يحققون من علم وتكنولوجيا .

ومن أسباب سقوط الدول وانتهاء الحضارات فيما يرى ابن خلدون شيوع الترف والظلم والمجاهرة بالفسق والفجور ، ويذهب ابن خلدون إلى أن العرب بالذات لا يمكن حكمهم إلا بالدين أو باسم الدين ، فهم - فيما يرى - أهل كبر وعصبيات ، والدين ينزع منهم ذلك .



الفلسفة والتاريخ :

دخلت أحداث التاريخ في مجال تفكير الفلاسفة منذ وقت مبكر ، لا من حيث
بواعث وقوع هذه الأحداث أو أسبابها وإنما قام الفلاسفة كعادتهم بالنظر لأحداث
التاريخ نظرة فوقية أو كأنهم يطلون عليها من عل ، ليتبصّصوا كيفية مسارها ، وهل
الإنسان في تقدم مستمر ، أم أنه ينكب نكوصا على عقبيه ، وهو حال انكبابه وقيامه
أيعود القهقري ، أما ينزع نفسه صوب التقدم . وراحوا يلاحظون العوامل المسيرة
للتاريخ عامة لا بقصد تفسير التاريخ ، وإنما بقصد الإسراع بمراحله وتطوراته فيما
قالوا . . وكان ثمة مجال آخر لمباحثهم ، وهو هل تتحرك هذه الأحداث التاريخية بشكل
مستقل عن إرادة الانسان أم يفعلها ، وهل هناك روح أو عقل كلي أو آلهة أو إله
يتدخلون في مسار هذه الأحداث بصرف النظر عن الإرادة البشرية . ولم يكف
الفلاسفة منذ القرن السادس قبل الميلاد حتى أيامنا هذه في القول والإعادة والترديد في
كل هذه الموضوعات غير المحددة . ولعل هيجل يُعد من أشهر هؤلاء ، فلنعرض لبعض
آرائه ببساطة شديدة قدر الامكان .

تفسير هيجل للتاريخ :

كل عصر أو حقبة زمنية - فيما يرى هيجل - تمثل وحدة مستقلة بكل أبعادها الدينية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، هذه الأبعاد التي يسميها هيجل الكل الحى أو المجموع الحى Living Totality وأن هذا الكل الحى الذى يمثل عصرا من العصور يحوى فى طياته تناقضات تتعايش معا فترة من الزمن ، ثم تتولد عنها فكرة



إن حضارات العالم - فيما يرى هيجل - ثلاث فقط هي : حضارة العالم الشرقي وحضارة العالم الأغريقي الروماني ، وحضارة العالم الجرمانى . . فالشرق عرف ويعرف أن شخصا واحدا فقط هو الحر والعالم الاغريقي الروماني يعرف أن بعض الناس أحرارا والعالم الجرمانى يعرف أن كل الناس أحرارا .

لذا فالشرق استبدادى ، والحضارة الثانية ديمقراطية أرستقراطية والثالثة ملكية^(٢) وبوجه عام ، فإن ما ذهب إليه هيجل لا يخلو من عمق فكر ، لكن هذا لا يمنع أن كثيرا من الخلل وعدم الصحة أصبح واضحا فى نظرية هيجل عند تطبيقه على تطور التاريخ .

علوم أخرى مساعدة :

ذكرنا فيما سبق جملة علوم (الجغرافيا - الاقتصاد - علم النفس - الفلسفة - الدين) باعتبارها علوما شاع استخدامها في تفسير الحدث التاريخي ولكن حقيقة الأمر أن كل العلوم على الاطلاق تعد علوما مساعدة للتاريخ ، وذلك لطبيعة التاريخ نفسه ، كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة . فالذي يعد بحثا في تاريخ العلوم ، لا بد له من إلمامه بالعلم الذي يؤرخ له ، فالباحث الذي يتناول تاريخ التعليم ، عادة ما ينصححه الأستاذ المشرف على بحثه أو رسالته بالقراءة أولا في مجال التربية أو التعليم حتى تكون مصطلحات العلم وأفكاره الأساسية طوع فكره وقلمه . والباحث الذي يتناول تاريخ

الزراعة^(١) لا بد له من معرفة شيء عن علم الزراعة ومصطلحاته ، والذي يكتب بحثا في تاريخ الفنون ، لا يشترط أن يكون مؤرخا فحسب وإنما دارسا للفن أو فنا ، ولا يمكن كتابة تاريخ للأدب على يد أديب ، ما لم يؤت حظا من أساليب المؤرخين في البحث ، كما لا يمكن للمؤرخ أن يكتب تاريخا للأدب ما لم يؤت حظا من أساليب الأدباء في التقصي . وأفضل من يكتب في تاريخ الطب والأطباء ، مؤرخون قرأوا شيئا عن الأمراض وطرائق علاجها ، أو طبيا مؤرخا ، فلا بد إذن أن ابن أبن أصيصة مؤلف طبقات الأطباء ، كان طبيا أو عالما بالطب على نحو ما ، ومؤرخو الفلسفة أو الحركة الفكرية ، لا بد أن يكون لهم إلمام بذلك كله ، وها نحن نرى مؤرخا كاهن خلدون ، برع في علم الاجتماع ، حتى أن علماء الاجتماع يكادون ينتزعونه من أحضان المؤرخين . ومؤرخو انتقال الحضارات والتأثيرات الحضارية لا بد لهم من جملة ما لا بد منه معرفة علم اللغة أو الفيلولوجيا ، لمعرفة أصول الكلمات وانتقالها من شعب إلى شعب ، وما يعتور هذا الانتقال من تغيير في الكلمة . أيمكن لباحث أن يحكم على التأثيرات العربية في شرق أفريقيا ، ما لم يؤت شيئا من السواحيلية (لغة شرق القارة الأفريقية) وشيئا من العربية .

فكل العلوم إذن في خدمة التاريخ ، وإنما تتوقف المسألة على اختلاف البحوث وتباين اتجاهاتها .

كلمة أخيرة :

ذكرنا ارتباط التاريخ بالعلوم المختلفة تحت عناوين على شذكلة (الجغرافيا والتاريخ - الاقتصاد والتاريخ - الاجتماع والتاريخ . الخ) وليس معنى هذا أن الحدث التاريخي لا يمكن تفسير إلا من وجهة نظر واحدة ، إما اقتصادية وإما اجتماعية . . الخ ، فالحدث الواحد قد يفسر بأكثر من وجهة نظر واحدة ، فمخروج الجماعات مهاجرة قد يفسر تفسيراً جغرافياً واقتصادياً ودينياً على نحو مركب وفي نفس الوقت . إن الحدث الإنساني (التاريخي) معقد مركب بحيث يصعب تعليله بسبب أو بوجهة نظر واحدة . فإذا تعثر





بِسْمِ اللَّهِ
بِحَمْدِ اللَّهِ

